

## المحاضرة الثانية عشر: بعض المسائل الكلامية "تابع"

### 3-1- مشكلة الخلافة (ج3):

وإذا كان الصراع على الخلافة بدأ منذ وفاة الرسول ﷺ، فإنه كان أكثر ضراوة ودموية في عهد الخليفة الراشدي الرابع علي ابن أبي طالب - كرم الله وجهه -، فقد بايعه الثوار الذين قتلوا عثمان ﷺ، وأهل المدينة، الأنصار والمهاجرين، عدا فريق من المهاجرين منهم طلحة والزبير الذين امتنعوا عن البيعة وقيل بايعوا تحت الإكراه، فقد قال الزبير: "ما بايعتك قط، وإن كنت على يقين أنك أولى بها، فاجعلها شورى"<sup>1</sup>، يصور ابن تيمية الحال بعد مقتل عثمان ﷺ قائلا: "وأما علي ﷺ، فإنه بوبع عُقَيْب قتل عثمان ﷺ، والقلوب مضطربة مختلفة، وأكابر الصحابة متفرقون، وأحضر طلحة إحضارا حتى قال من قال: أنهم جاءوا به مكرها، وأنه قال: بايعت واللج -أي السيف - على قفي"<sup>2</sup>، يعني انه بايع تحت إرغام وإكراه الثوار، وطعنت عليه عائشة واستحلت محاربتة<sup>3</sup>، وكانت تيمية تأمل أن يتأمر طلحة التيمي<sup>4</sup>، - قد يكون هذا مجرد تخمين واستنتاج عقلي غير صحيح، قال به ابن ابي الحديد -، ثم أيد بيعة علي - كرم الله وجهه - أهل الحجاز والعراق، لكن أهل الشام وواليهم معاوية امتنعوا عن المبايعه بحجة وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان ﷺ أولاً، - وهي كلمة حق أريد بها باطلا كما يقال-

وبعد موقعة الجمل<sup>5</sup>، والصفين<sup>6</sup>، وقضية التحكيم<sup>7</sup>، ظهرت أول فرقة سياسية بالمعنى الحقيقي للكلمة، وهي فرقة الخوارج<sup>8</sup>، التي خرجت عن علي، وكفرته كما كفرت معاوية أيضا، وبالمقابل ظهرت فرقة أخرى

<sup>1</sup> الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): كتاب العثمانية، تح وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص173.

<sup>2</sup> ابن تيمية: منهاج السنة، ج1، ص535.

<sup>3</sup> الجاحظ: كتاب العثمانية، ص173.

<sup>4</sup> ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دارا لجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1996، ج 9، ص199.

<sup>5</sup> موقعة الجمل هي معركة وقعت في البصرة عام 36 هـ بين قوات أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب والجيش الذي يقوده الصحابي طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام بالإضافة إلى أم المؤمنين عائشة التي قيل أنها ذهبت مع جيش المدينة في هودج من حديد على ظهر جمل، وسميت المعركة بالجمل نسبة إلى هذا الجمل. (موقعة الجمل، [www.islamstory.com/ar/](http://www.islamstory.com/ar/)، 2013/08/10 - 15 ما 56د).

<sup>6</sup> موقعة صفين هي المعركة التي وقعت بين جيش علي بن أبي طالب وجيش معاوية بن أبي سفيان في سنة 39 هجرية. وحصلت بعد معركة الجمل. أسبابها: طالب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب معاوية بالبيعة، فيما طالب معاوية علياً بالقصاص أولاً من قتلة عثمان ثم تكون البيعة. وأصر علي على أن تكون البيعة أولاً. ومع احتدام الموقف توجه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى الشام مع جيشه (عدده 120 ألفا) لأخذ البيعة من معاوية والذي بدوره أرسل جيش من دمشق (عدده 90 ألفا) أقام في صفين وتقابل الجيشان هناك وقام بينهما قتال

مقابلة للفرقة السابقة الذكر تشييعت لعلي بن أبي طالب عليه السلام، عرفت بالشيعة<sup>9</sup>، وهكذا آلت الأمور في نهاية حكم علي بن أبي طالب عليه السلام إلى وجود ثلاثة أمراء بدل أمير واحد كما كان مُتفق عليه في سقيفة بني ساعدة، فبعد

شديد كان يستمر يومياً من بعد صلاة الفجر إلى نصف الليل وقتل فيه ما يقارب 70 ألفاً. ( وقعة صفين، [www.islamstory.com/ar](http://www.islamstory.com/ar) ، 2013/08/10 - 14سا12د).

<sup>7</sup> بعد أن التقى جيش علي رضي الله عنه مع جيش معاوية في صفين، وحصلت بينهم مقتلة عظيمة، وخارت قوى الجيشين عن مواصلة المعركة، وكاد الجيش العراقي بقيادة علي بن أبي طالب أن ينتصر على الجيش الشامي بقيادة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، هنا تفتق ذهن عمرو بن العاص وكان مع معاوية عن فكرة التحكيم، فأرسل معاوية رجلاً يحمل المصحف إلى علي ويقول له : بيننا وبينكم كتاب الله . فقال علي : أنا أولى بذلك، بيننا كتاب الله . ومثّل علياً في هذا التحكيم أبو موسى الأشعري ومثّل معاوية عمرو بن العاص واجتمعا في دومة الجندل، وحضر الاجتماع جمع من الصحابة، ولكن التحكيم فشل نظراً لصعوبة حل الخلاف وإصرار الطرفين على مواقفهما السابقة، وعدم حيافة الحكيم علي قوى محايدة تنفذ القرار.(القاضي أبو بكر العريبي: العواصم من القواصم، تح: عمار طالبي، دار التراث، القاهرة، مصر، (د-ط)، 1974، ص: 172.

<sup>8</sup> الخوارج: الخوارج على حد تعبير الشهرستاني: " كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان" (الشهرستاني: الملل والنحل، ج1، ص114)، يمكن أن يكون هذا تعريفاً سياسياً عاماً، اعتبر فيه الخروج على الإمام المنفق على إمامته الشرعية خروجاً في أي زمن كان. ويضيف ابن حزم لتعريف الشهرستاني أن اسم الخارجي يلحق بكل من كان شبيهاً بالخارجين على الإمام علي، وشاركهم في آرائهم، فيقول ابن حزم بالحرف الواحد: "ومن وافق الخوارج من إنكار التحكيم، وتكفير أصحاب الكبائر، والقول بالخروج على أئمة الجور، وأن أصحاب الكبائر مخلدون في النار، وأن الإمامة جائزة في غير قریش فهو خارجي" ( ابن حزم (أبو محمد علي بن احمد): الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج2، تح: محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمان عُمَيْرَة، دار الحيل، بيروت، لبنان، ط2، 1996، ص113.)، ويقول في هذا الشهرستاني: " فجوزوا أن تكون الإمامة في غير قریش، وكل من ينصبونه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل واجتناب الجور كان إماماً، ومن خرج عليه يجب نصب القتال معه، وانه إن غيّر السيرة وعدل عن الحق وجب عزله، أو قتله، وهم اشد الناس قولاً بالقياس. وجوزوا أن لا يكون في العلم إماماً أصلاً وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً أو نبطياً أو قريشياً"(الشهرستاني الملل والنحل، ج1، ص174). والخوارج تاريخياً هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - في صفين بعد قبول التحكيم، وقد اجمع الخوارج على أمرين: أولهما تكفيرهم لعلي - كرم الله وجهه -، وعثمان بن عفان عليه السلام، وأصحاب الجمل، والحكميين وكل من رضي بهما، وثانيهما قولهم أن كل من أذنب ذنباً من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو كافر ويكون في النار خالدًا مخلداً.(عبد المنعم الحفني: مجموعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية ص210).

<sup>9</sup> الشيعة: الشيعة على حد تعبير أبو الحسن الأشعري: "إنما قيل لهم الشيعة لأنهم شايعوا علياً رضي الله عنه، ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين، ج1، ص65)، ويقول الحافظ ابن حجر: "والتشيع محبة علي وتقديمه على الصحابة، فمن قدمه على أبي بكر وعمر فهو غالٍ في تشييعه، ويطلق عليه رافضي، وإلا فشيوعي، فإن أنضاف إلى ذلك السب أو التصريح بالبعث، فغالٍ في الرفض، وإن اعتقد الرجعة في الدنيا، فأشد في الغلو" (الحافظ ابن حجر العسقلاني، هادي الساري مقدمة فتح الباري، ص483). وقد قال الشيعة بخلافة علي - كرم الله وجهه -، نصاً ووصيةً، إما جلياً، وإما خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده إلا بتقية من عنده، أو بظلم يقع من غيره(عبد المنعم الحفني: مجموعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية، ص265).

اقترح الأنصار : "منا أمير ومنكم أمير..."<sup>10</sup>. ورفض المهاجرين، وتسفيه عمر بن الخطاب ﷺ لهذا الاقتراح بقوله: "هيهات أن يُجمع سيفان في غمدٍ واحدٍ، انه والله لا ترضى العرب أن تُؤمركم ونبيها من غيركم. ولكن العرب لا ينبغي أن تولي هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم وألو الأمر منهم..."<sup>11</sup>. قلت أصبح هناك ثلاثة أمراء: علي في العراق، ومعاوية في الشام، وعبد الله بن وهب الازدي أميراً انتخبه الخوارج، ثائراً على أهل العراق والشام معا. وانتهت هذه الأحداث بمقتل علي بن أبي طالب على يد عبد الرحمان بن ملجم المرادي، أحد الخوارج بالكوفة، فجر خمسة عشر رمضان سنة أربعين للهجرة<sup>12</sup>. وكانت بذلك نهاية حكم الخلفاء الراشدين، الذي دام من السنة الحادية عشر للهجرة، إلى السنة الاربعين للهجرة، أي تسعة وعشرون سنة، وقد بايع أتباع علي ﷺ، ابنه الحسن الذي لم يبق فيها إلا أشهراً معدودة، ثم عقد صلحا مع معاوية بن أبي سفيان، تنازل له عن الخلافة<sup>13</sup>، من اجل جمع كلمة المسلمين، وحققنا لدمائهم. فحقق بذلك خير رسول الله ﷺ حين قال مثنيا على الحسن: ﴿ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين﴾<sup>14</sup>. ورغم اغتيال ثلاثة رؤساء دولة من أصل أربعة رؤساء، إلا أن الحكم الراشدي كان يمثل الخلافة الشورية، التي تحولت بعد ذلك إلى ملك عضود، يتوارثه الأمويون، فحلت القوة والاضطرار بدل الاختيار التام أو الشورى. فإذا كان تأسيس الاسلام على حد تعبير هيغل هو "ثورة الشرق"، "فإن الفتنة كانت ثورة في ثورة"<sup>15</sup>. وقد تكون حسب رأبي وفي كثير من الأحيان ثورة مضادة، أو ثورة للقضاء على ثورة.

وهذا ما فعله معاوية عندما عهد لابنه يزيد، وحجته في ذلك - كما يزعم - كما أشار عليه المغيرة بن شعبه<sup>16</sup>، خوفه من حدوث الفتنة ووقوع النزاع الذي يؤدي إلى سفك دماء المسلمين، كما حدث منذ مقتل عثمان بن عفان ﷺ، ولكن ما يؤخذ على معاوية، انه لم يختار خليفة أكفا وأفضل كما فعل أبو بكر ﷺ، ولم يترك المشورة للمسلمين كما عهداها عمر لستة أختيار المسلمين، ثم أنّ عهده لابنه يبعده عن الموضوعية والواقعية،

<sup>10</sup> الطبري (محمد بن جرير: تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، ج3، ص207.

<sup>11</sup> ابن هشام (أبو محمد عبد الملك): سيرة النبي ص تح: مجدي فتح السيد، دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر، ط1، 1995، مج4، ص336.

<sup>12</sup> ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة (المعروف بتاريخ الخلفاء)، تح: علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ج1، ص181.

<sup>13</sup> أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح: تاريخ اليعقوبي، تر: تح: عبد الأمير مهنا، مؤسسة العالمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 1993، ج2، ص254.

<sup>14</sup> أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الفتن، حديث رقم: 7109.

<sup>15</sup> هشام جعيط: الفتنة (جدلية الدين والسياسة في الاسلام المبكر)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط4، 2000، ص325.

<sup>16</sup> ابن الأثير: لكامل في التاريخ، تح: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص491.

ويغرقه في عالم الذاتية والعاطفة الأبوية الجياشة. فظل الأمويون ضالين عن المبدأ الذي سار عليه الخلفاء الراشدون وهو الشورى، لأنّ بني أمية كما يرى ابن خلدون لا يرضون سواهم في الملك، وهم عصابة قريش، وأهل الملة اجمع. ودليل ابن خلدون على ما رأى: هو أن عمر بن العزيز كان يتمنى أن يعهد بالخلافة إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، ولكنه لم يستطع فعل ذلك خشيةً من بني أمية أهل الحل والعقد<sup>17</sup>. وأهل الغلب منهم، فالمُلك على حد تعبير ابن خلدون لا يحصل إلا بالتغلب والتغلب لا يحصل إلا بالعصبية<sup>18</sup>. ورغم أن عمر بن عبد العزيز أراد الرجوع إلى طريقة الخلفاء الراشدين في الحكم والشورى والعدل، إلا أنه لم يوفق إلى ذلك لتغلب العامة عليه، ولقوة عصبية بني أمية. ولذلك لم تدم خلافته طويلاً، وعادت طريقة معاوية من جديد.

ونتيجة لهذا التحول الجذري في الخلافة الإسلامية في العهد الأموي، فقد قامت الأمة الإسلامية في عهد نبيها محمد صلى الله عليه وآله، وخلفائه الراشدين على التراحم والإخوة وإنكار الذات، بيد أن هذا لم يدم في العهد الأموي لتحل مكانها روابط النسب، وتعلو نعة العصبية العربية، ومن ثمّ ظهرت في عهدهم حركات الموالي التي ساعدت على إسقاط الدولة الأموية، التي ابتعدت كثيراً عن الشورى والخلافة، وأصبحت ملكاً استبدادياً، قائم على النظام الوراثي، مثلما كان سائداً عند الفرس والروم، ولذلك شُبه النظام الملكي الأموي بالهرقلية أو الكسروية<sup>19</sup>، نسبة إلى نظام أباطرة الروم، وأكاسرة الفرس، الذين كانوا يتبعون النظام الوراثي، ويتميزون بالعنجهية والجبروت.

حتى أن ابن خلدون يذكر في مقدمته أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عند مقابلته لمعاوية بن أبي سفيان في الشام، وكان هذا الأخير في أبهة الملك، وزيه من العدد والعدة، استنكر ذلك عمر رضي الله عنه وقال: "أكسروية يا معاوية؟"، فأجاب معاوية: "يا أمير المؤمنين أننا في ثغر تجاه العدو، وبنا إلى مباحاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة. وهذه الحاجة تتمثل في تحقيق مقصد من مقاصد الحق والدين... وليس كما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب المظالم والبغي"<sup>20</sup>.

وانطلاقاً من نظرية ابن خلدون في تفسير التاريخ، وأن الحكم يحصل دائماً بالتغلب، وأن التغلب لا يكون إلا بقوة العصبية. فإنّ الدولة الأموية عندما ضعفت شوكة عصبيتها، ومالت إلى الترف والبدخ، وبالغت في التطرف والتعصب إلى العرب، نشطت حركات الشيعة في القرن الهجري الثاني، وانظم لها الفرس

<sup>17</sup> ابن خلدون: المقدمة، تح: احمد جاد، ص197.

<sup>18</sup> ن م، ص138.

<sup>19</sup> الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1997، ج8، ص89.

<sup>20</sup> ابن خلدون: المقدمة، تح: احمد جاد، ص195.

الساخون على الحكم الأموي، فكانت سنة مئة وإثنان وثلاثون للهجرة، نهاية الحكم الأموي، ليبدأ الحكم العباسي بالخليفة أبو العباس السفاح<sup>21</sup>.

ودامت الخلافة العباسية أكثر من خمسة قرون (132هـ - 656هـ)، ولم تكن هذه الخلافة على نمط واحدٍ من القوة والعدل والاستقرار والأمن، ثم انتقلت إلى أخ أبو العباس، أبو جعفر المنصور، ومضت الخلافة في ذريته، ولكن الدولة الإسلامية لم تستمر موحدة في ظلهم، ففي العصر العباسي الأول (132هـ - 232)، أي من خلافة أبو العباس حتى خلافة أبو جعفر هارون الواثق، كانت فيه السلطة السياسية والدينية في أيدي الخلفاء في العالم الإسلامي كله عدا الأندلس فقد تمكن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك من الفرار إلى الأندلس وأقام دولة أموية هناك مستقلة عن العباسيين.

أما في العصر العباسي الثاني (232هـ - 590هـ)، أي من حكم أبو الفضل جعفر المتوكل إلى منتصف حكم أبو العباس أحمد الناصر)، فقد نشأت دول أخرى كثيرة بعيدا عن العراق، في إفريقيا، ثم في مصر، وفي منتصف القرن الرابع زحف البويهيون<sup>22</sup> إلى بغداد وفرضوا سلطتهم على الخلفاء العباسيين الذين فقدوا السلطة الدينية والسياسية كذلك.

وفي العصر العباسي الثالث، وهو العصر الأخير من حكم العباسيين، وينتهي بمقتل الخليفة المعتصم وذويه سنة 656هـ على يد التتار. وقد كان الخلفاء العباسيون سبعة وثلاثين خليفة من أشهرهم بعد المنصور، المهدي، وهارون الرشيد، والمأمون، والمعتصم<sup>23</sup>. وما يلاحظ على نظام الخلافة في العصر العباسي، أنه أخذ شكلا آخر مغايرا للخلافة الأموية، فإذا كانت هذه الأخير تحاول أن تفسر حكم ملوكها انطلاقا من نظرية العناية الإلهية، وذلك من خلال تبنيها موقف الجبريين الذين يقولون بأن أفعال الإنسان من صنع الله وأنها تنسب إليه مجازا. فإن الخلافة العباسية كانت تتبنى نظرية التفويض الإلهي، ومعنى هذا أن الحاكم العباسي مفوض من الله ولا يستمد سلطته من الأمة. ولذلك بدأت الألقاب الخلفية المضافة إلى الله تظهر منذ قيام

<sup>21</sup> <http://www.graaam.com/encyclopedia/book6-19.html> 2013/08/12 - 16 سا36د. توجه أبو العباس إلى

مسجد الكوفة عقب مبايعته بالخلافة في الثاني عشر من ربيع الأول سنة 132هـ/750م، وألقى على الملأ خطبة كانت بمثابة الإعلان الرسمي عن قيام الدولة العباسية، ومما جاء في تلك الخطبة: فانا السفاح المبيح والثائر المنيح (يقصد أنه كريم جواد). ويقال لقب بالسفاح لمبالغته في سفك دماء بني أمية.

<sup>22</sup> البويهيون، بنو بويه: سلالة من الديلم (جنوب بحر الخزر) حكمت في غرب إيران والعراق سنوات 62/1056-45/932 م. (www.islamstory.com/ar 2013/08/13، 23-سا31د.

<sup>23</sup> <http://www.3deed.com/vb/thread123678.html/#ixzz2bsuARayn> 2013/08/13، 23-سا09د.

الدولة العباسية<sup>24</sup>، مثل: الهادي، الرشيد، الواثق، المتوكل، القاهر، القادر... وفي كلتي الخلفتين الأموية والعباسية غيبت إرادة الإنسان وحرية، لا لشيء إلا لتبرير سلوكيات الحكام وحاشيتهم، وكانت هذه التصرفات وتبريراتها من العوامل التي ساعدت على ظهور الفرق الإسلامية.

---

<sup>24</sup> عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ضمن سلسلة دراسات في تاريخ العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، (د-ط)، (د-ت) ج2، ص154.